(ما) هكذا يا سعد تورد الإبل

بقلم : أ. حسن سعيد الكرمي

دُعيت إلى حضور ندوة أقامتها في عمان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية من 6-9 أيلول (سبتمبر) 1993، وكان موضوع الندوة **«تطوير منهجية وضع المصطلح العربي وبحث سبل نشر المصطلح الموحد وإذاعته»**.

ودعي إلى الاشتراك في الندوة خطباء من أنحاء العالم العربي يفترض فيهم بطبيعة الحال أن يكونوا من علماء اللغة العربية أولا ومن عارفي لغة أو لغتين من اللغات الأجنبية، وقد عرفت البعض وتعرفت بالبعض الآخر. في أثناء حضوري هذه الندوة استمعت إلى الخطباء في الموضوع، ولم أكن من جملة من ندبتهم المنظمة لهذا الغرض، ولكني علقت على بعض الأقوال ولم أفصل ثم ترك الأمر في آخر الندوة إلى المدعوين يضعون توصياتهم.

هذه الندوة واحدة من ندوات كان ينبثق عنها لجان، وكان البحث في الجميع يقتصر غالبا على المصطلح العربي وعلى الترجمة. ويلاحظ أن موضوع اللغة العربية ومشكلاتها موضوع لم يعط الأهمية التي يستحقها مع أنها الركن الأهم في المصطلح وفي الترجمة. ويلاحظ أيضا أن الندوات من مثل ندوة عمان المذكورة تكرر في كثير من مناقشاتها وتوصياتها أمورا معادة سبق لها أن قيلت في مناسبات أخرى، ومع ذلك فإن جميع التواصي المعادة لم تنفذ ولم يسأل أحد عن سبب عدم تنفيذها أو أسبابه، فذهبت أدراج الرياح.

يقولون أقوالا بعيد منالها وإن قيل هاتوا حققوا لم يُحقّقوا

عقدت هذه الندوة في ظروف قاسية تمر فيها اللغة العربية والكل يعلم هذه الظروف ويرى بأم عينيه ما آل إليه الحال. هذا مع ازدياد عدد المجامع اللغوية وازدياد الجامعات العلمية. أشفق أن أقول عن هذه اللغة إنها في طريق الدثور والإنقراض أو التصدع إلى لهجات تنشأ عنها قوميات مختلفة تفسخ الوحدة العربية. فنحن مطالبون بدرء هذا الخطر ثم بتحسين حال اللغة العربية حتى تستطيع الوفاء بواجبها الثاني وهو وضع مصطلحات للعلوم المختلفة أو على الأقل ترجمة هذه المصطلحات إلى اللغة العربية. ويخيل إلي أن في الأمر مشكلات وصعوبات قد تحول دون تنفيذ ما تصبو إليه هذه الندوة على الوجه الصحيح.

خذ مثلا مشكلة المعجم العربي الذي هو المرجع الأول في هذا المجال. الظاهر أن الذين يعرفون اللغة العربية المعجمية طغت عليهم في كثير من الأحيان لغة العامة، وصاروا ينظرون إلى اللغة العامية بأنها مصدر للمعاني وللمصطلحات، وتمثل ذلك في أن كثيرا من المصطلحات أخذت من اللغة العامية. ومن أسباب ذلك تدني مستوى المعرفة باللغة العربية، وهو تدن آخذ بالاستفحال يوما عن يوم، وأصابت عدواه كثيرا من الرجال الذين يعتبرون الآن من علماء اللغة العربية. هذا من ناحية اللغة العامية،

ولكن المعجم العربي لا يزال في حاجة إلى إصلاح حتى يستطيع الوفاء بالمهمة المرجوة منه وهي إعطاء المعاني خالية من اللبس والإبهام. وقد شكا من ذلك الكثيرون قديما وحديثا ولكنهم لم يفعلوا شيئا وتركوا الحال على ما هو عليه. ولا أريد الخوض في هذا الوضع وأكتفي بالإشارة إلى ما ذكرته عن ذلك في معجمي (الهادي إلى لغة العرب). لقد حاولت في هذا المعجم إزالة اللبس والغموض من معاني الكلمات واستعنت باللغة الإنجليزية، ولكن هذا المجهود يجب أن يتلوه مجهودات أخرى. والعجيب أن مجامع اللغة العربية لم تول هذا الأمر ما يستأهل من الاهتمام.

إذاً ما دام المعجم العربي في هذا الحال فأنا لا أرى كيف يمكن وضع مصطلحات عربية أو ترجمة المصطلحات الأجنبية على وجه معقول. فهل في الإمكان وضع معجم عربي متفق عليه يكون واضح المعاني محدد الدلالات مشفوعا في كثير من الحالات بصور أو رسوم أو بكلمات إنجليزية زيادة في التحديد. وقد استعملت أنا الكلمات الإنجليزية في معجم الهادي قدر الإمكان لهذه الغاية. وهذا بالطبع عمل جبار. والمجامع العربية مدعوة الآن إلى وضع هذا المعجم، وقد يستغرق إنجازه زمانا طويلا، ولكن العمل فيه من الآن أفضل من انشغال المجامع في أمور أخرى. والمؤسف أن المعاجم التي ألفت أخيرا اتبعت الأسلوب الذي اتخذته المعاجم القديمة في شرح المعاني، فخرجت وهي نسخة عن الماضي. ولعل المجامع العربية ستضطر من أجل هذه الغاية إلى اتباع طريقة جديدة لاختيار أعضائها المتضلعين في اللغة العربية بالمعنى الحديث.

ومن الدليل على الحاجة إلى إصلاح المعجم العربي هذه البلبلة في المصطلحات بين الأقطار العربية. وقد يقال أن البلبلة سببها عدم وجود التعاون والتنسيق بين المجامع المختلفة. قد يكون ذلك ولكني أعتقد أنها ناشئة عن الإبهام في معاني الكلمات في المعجم العربي بحيث أن الكلمة توحي إلى القارىء الثاني أو الثالث معاني لا توحيها إلى الآخر وهكذا. هذا من جهة واحدة، أما من الجهة الثانية فلكل قارىء مفهوم للكلمة بحسب ثقافته وتلاحمه مع اللغة العربية وهذا يتناقص يوما عن يوم. وفي رأيي أن التمادي في ترجمة المصطلحات يزيد الطين بلة ويزيد من عظم البلبلة، وعدم ازدياد المعرفة باللغات العلمية الأجنبية وعدم مواكبة سير التطور فيها عقبة كأداء. ولكن التواضع في هذا الأمر محمود، فلماذا لا نقنع بالقليل الآن فنضع أولا معجما بسيطا في المصطلحات الابتدائية في العلوم يكون موحدا وأساسا لخطوة أخرى. والغاية من هذه الفكرة أن يكون هذا العمل اختبارا لمقدار التوافق بين المجامع وخبرة في اختيار الألفاظ البسيطة المتعارف عليها نوعا ما. وقد علمت أن بعض المجامع العربية حاولت ذلك ثم أقلعت عنه لكثرة ما اعترضتها من خلافات، وصدرت كتب عن توحيد المصطلحات وقد سمعت انتقادات لها من جهات مختلفة كالانتقادات التي وجهت إلى المعجم الطبي الموحد، وأنا أوافق على كثير منها.

إذاً ما العمل في هذا الجو من التشويش ؟ هذا هو السؤال الذي على الشفاه في كل مكان ـ ما العمل ؟ لا شك أن في الأمر ما فيه وأن الصراحة في القول مطلوبة، ولذلك أقول : إن عدم إدراك المجامع العربية لهذا الوضع المحزن شيء غريب وتماديها فيه شيء أغرب، لقد آن لها أن تقف وتتأمل وتحلل وتعلل علها تهتدي إلى سر المرض. وفيما يلي بعض التلميحات إلى سر هذا الوضع :

أولا : نحن لا نضع مصطلحات بل نترجم المصطلحات فالقضية قضية ترجمة، والمسئولية يتحملها المترجم وعليه أن يرضي نفسه وأن يرضي غيره فيما يترجم. أما إرضاء نفسه فهو أن يكون هو واقفا تمام الوقوف على اللغة التي يترجم منها وهذا

على درجات وكلها صعبة المرتقى، وأنا أعلم من خبرتي في الرياضيات وفي الترجمة أن الترجمة أصعب من الرياضيات، وإذا كانت الترجمة من اللغة الإنجليزية مثلا فالأمر لا يقتصر على المفردات وحدها بل يتعلق بالعلم الذي تستعمل فيه هذه المفردات هل هو تاريخ أو جغرافية أو رياضيات أو طبيعة أو كيمياء أو اقتصاد أو سياسة إلى آخره وكل من هذه العلوم تتدرج في الصعوبة عند الترجمة، وأعني صعوبة وضعها في اللغة العربية فالمترجم هو الذي يقرر ماذا يترجم. وقد وجدت أن من العسير ترجمة الفلسفة إلى اللغة العربية وكذلك ترجمة علم النفس وترجمة الاقتصاد السياسي.

وأذكر أن خيري حمّاد ترجم كتابا عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية للعالم الأمريكي الألماني شمبيتر فخرجت الترجمة بالعربية شيئا لا يفهم على الإطلاق. وترجم اثنان من المترجمين كتاب Colin Wilson بعنوان The Outsider .فجاءت ترجمته غير مفهومة[1]. ومعنى ذلك أن اللغة العربية أحيانا لا يكون فيها مفهومات تطابق المفهومات في كثير من العلوم. وكل لغة لها بنية خاصة بها، وكلما اتسعت صيغ اللغة وقوالبها المعبّرة كانت أقدر على استيعاب المعاني من لغة أخرى. وأذكر أنني تكلفت عرق القربة في ترجمة «التفكير الصحيح والتفكير الأعوج» من الإنجليزية.

واللغة العربية لغة صيغ وقياس على درجة رفيعة، ولكنها مع ذلك تعجز عن الإتيان بصيغ تقابل صيغا في اللغة الإنجليزية. خذ مثلا respectable فلها صيغة في اللغة العربية ولكن respectability ليس لها صيغة مقابلة، والأولى مركبة من عنصرين والثانية من ثلاثة عناصر ولكن ما القول في comportmentalization أو disingenuousness أو disestablishmentarianism والخلط في الصيغ سبب في مسخ المعنى خذ مثلا كلمة credible بمعنى أن الناس يصدقونه ويثقون بقوله، ثم خذ credibility وترجمتها الصحف بالمصداقية مستعملة المصداق في غير موضعها، ولو قالوا المصدوقية لكانوا أقرب إلى الصواب. واقترح بعضهم في هذه الحالات استعمال صيغة البسملة والحوقلة في مثل هذه الحالات فقالوا عن automation أتمتة، ومنهم من قال المصطلحية عن terminology وقالوا الكندشة عن air conditioning ومنهم من قال الرقمنة عن digitalization ومنهم من قال البرقمة عن telecommunication وقال الهتفزة عن videotex والزيادات مثل prefix ومثل suffix من أصعب المشاكل.

المسألة صعبة ومعقدة تحتاج إلى حلول جذرية وتمس أصول اللغة العربية وهذا يحتاج إلى قرار ومن أين يأتي القرار والبلاد العربية كل منها في واد. وكنت أشعر وأنا مراقب للغة في الإذاعة البريطانية أنه حبذا لو كان في اللغة العربية قاموس للمترادفات يعين المترجم على ترجمة المترادفات في اللغة الإنجليزية على غرار قاموس Roget. ثم أخذت أجمع المترادفات للشيء الواحد وأحاول ترجمتها، وإليكم صورة موجزة عن ذلك :

طين ـ غضار ـ طفل ـ صلصال
سحاب ـ غمام ـ غيم ـ مُزن
غضاضة ـ نعومة ـ رخوصة ـ طراءة
أجمة ـ أشب ـ غيل ـ غاب
مناعة ـ حصانة ـ حرازة ـ عصمة
مِعاء ـ مصير ـ قصب ـ عفج
ذنب ـ إثم ـ خطيئة ـ معصية

(1) ومثل هذا ما جرى في ترجمة عادل زعيتر لكتاب (الحب والحياة) للشاعر الألماني (غوتي) مثلا عن الفرنسية.

غبار ـ تراب ـ عُفار ـ عَفاء
مطر ـ غيث ـ حيا ـ ودق
عطش ـ ظمأ ـ صدى ـ غلة
حزن ـ أسى ـ جوى ـ بث

وغيرها وغيرها. وحاولت ترجمتها إلى الإنجليزية ورجعت إلى المعجم العربي فلم أجده مسعدا. فقلت هذا بلاء، وكيف يكون في المعجم العربي كلام غير مفهوم. ولذلك أقول حبذا لو أن المجامع العربية تتوفر على هذا أو مثله وبذلك تهون على المترجم عمله.

ومما يمتحن به المترجم عدا الترجمة من اللغة الأجنبية الترجمة إلى اللغة الأجنبية من اللغة العربية، وهذا محك يكشف عن غنى اللغة العربية بالنسبة إلى اللغة الأجنبية وأقترح لهذا الغرض على المترجمين في المجامع العربية أن يترجموا التعريفات للجرجاني لا لشيء إلا ليدركوا ما أقوله من أن المعاجم العربية في حاجة إلى إصلاح، وقد ترجمت معظم التعريفات وبقيت تعريفات أخرى في غاية الغموض وقلت في ذلك الوقت : تعريفات الجرجاني تحتاج إلى تعريف.

ومن هذا كله يفهم مبلغ العناء في الترجمة وفي ترجمة المصطلحات بصورة خاصة لأن المصطلح ليس ألفاظا فحسب وإنما وراء الألفاظ تاريخ ثقافي ولغوي طويل وأنت تريد أن تجمع كل ذلك في كلمة أو عبارة عربية لا يتفق جميع العرب عليها. وأذكر على الهامش أن عبارة peaceful coexistence طرأت وكان لا بد لي من إيجاد عبارة في اللغة العربية تقابلها بحكم عملي كمراقب للغة في الإذاعة البريطانية فقلت : التعايش السلمي، ولما سمع المذيعون المصريون بذلك قالوا التعايش في صعيد مصر يعني شيئا خلاف التعايش هنا. وهذا ينبهني إلى أمر مهم جدا طالما نسيناه وهو أن العالم العربي ليس بلدا واحدا له وحدة ثقافية أو لغوية أو تاريخية، بل هو من حيث اللغة في الدرجة الأولى كرقعة الشطرنج وقد تباعد ما بين اللغة في المغرب وبينها في مصر أو في سوريا أو في العراق أو في الجزيرة حتى أصبحت الفصحى لها طوابع مختلفة وصور تتباين كثيرا أو قليلا في الأذهان وخلفية ثقافية متفاوتة.

ونحن لا نريد اتساع الخرق ونريد رأب الصدع وأول مايجب أن نعمله من جملة أشياء كثيرة وضع معجم أساسي عربي يوحد اللغة والفكر ويكون قاعدة لتعليم اللغة في المدارس ولا سيما مدارس الأحداث وفي غير المدارس ويكون خاليا من الغموض سهل العبارة واضح المعاني بلغة بسيطة مشوقة، وهذا على غرار ما يسمى بالإنجليزية readable dictionary ويتلو ذلك سلسلة كتب للقراءة على مبدأ المعلم اللغوي الحديث. وحبذا لو أن المجامع العلمية وأساتذة اللغة في الجامعات تتضافر على إنجازه ويكون لكل بلد مشاركة في وضعه. وأنا الآن ماض بمعونة الله في وضع معجم من هذا القبيل.

وفي ختام حديثي أود أن أعرض بعض المقترحات التي أراها جديرة بالاهتمام :

الأول : على المجامع اللغوية أن تتوقف عن ترجمة المصطلحات وأن تتوفر على النظر في مشاكل اللغة العربية والعمل على وقف التردي في اللغة من جميع نواحيها ومعالجة قضية النحو والتفكير في وضع لغة عامية فصيحة موحدة، أي لغة بين العامية والفصحى.

الثاني : انتخاب أعضاء المجامع اللغوية يجب أن يكون على أساس موحد لجميع البلاد العربية حتى لا ينتخب عضو لا يستحق العضوية.

الثالث : ترجمة المصطلحات هي من واجب أساتذة الجامعات وحدهم بالتعاون مع مجامع اللغة من

ناحية اللغة العربية فقط، ولماذا لا تتعاون أيضا مع أساتذة اللغة في الجامعات.

الرابع : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تكون المنسق بين الجامعات والمجامع.

الخامس : وضع معجم أولي في بسائط مصطلحات العلوم الابتدائية بالتعاون بين المراجع المذكورة آنفا يتلوه معاجم تتدرج في الصعوبة.

السادس : لمساعدة أساتذة الجامعات في ترجمة المصطلحات يطلب من المجامع اللغوية ضبط معاني الكلمات بإصلاح المعجم العربي.

السابع : المجامع العربية مكلفة بوضع جداول بالمترادفات يستعين بها أساتذة الجامعات في ترجمة المصطلحات، على أن تشرح هذه المترادفات شرحا مفيدا، والأمثلة على ذلك مرّ ذكرها.

هذا الجهد المشترك بين أساتذة الجامعات والمجامع يغني اللغة العربية ويحدد معانيها والنتيجة تكون جمع خزينة يستعان بها في المستقبل.

الثامن : قيام المجامع العربية بالبحث في المعاجم العربية الكبرى كلسان العرب عن جميع الكلمات الاصطلاحية عن الحيوان وما يتعلق به والنبات وما يتعلق به والبيولوجيا وما يتعلق بها والإنسان وما يتعلق به والأنهار والجبال والرياح وجميع الظواهر الطبيعية والطعام والشراب والصحة والمرض .. إلى آخره. ثم تبويب هذه المصطلحات في جداول منظمة مع التفسيرات الواردة في المعاجم وإعطاء هذه الجداول إلى أساتذة الجامعات كل بحسب اختصاصه لترجمتها أو الرجوع إليها عند الحاجة ولتكون عدة أو ذخيرة للمستقبل. ولنأخذ باب النبات فهذا يبوب في جداول عن جذر النبات وساق النبات وأغصان النبات وزهره وثمره ثم عن أنواعه من طحالب وبقل وخضر وشجيرات وشجر وأخشاب ونباتات طبية، وكذلك في الحيوان والحشرات والطير والأسماك إلى آخره. وقد عملت أنا لنفسي جداول من هذا النوع واستفدت منها في وضع معجمي الإنجليزي العربي (المغني الأكبر) فائدة جليلة.

وخلاصة القول أنه إذا كانت المجامع المختار أعضاؤها اختيارا صحيحا عجزت عن القيام بواجبها نحو اللغة العربية والتعاون، كما شرحنا، مع أساتذة الجامعات، وإذا أخفق أساتذة الجامعات في ترجمة المصطلحات بالتعاون مع المجامع العربية فما للوضع المتردي من علاج إلا التوقف عن ترجمة المصطلحات واستعمال المصطلحات الأجنبية. أما المجامع العربية فليكن همها الوحيد السهر على اللغة العربية لا غير.

واليت لا يبتنى إلا له عمد
ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

* * *